

الفصل الأول

التعليل بالاستخفاف والاستثقال

وُجد هذا الأسلوب من التعليل في باكورة الدرس العربي ، ولهذا المصطلح مرادفات كثيرة أخرى مثل : كثرة الاستعمال ، أو كثرة الدوران على الألسنة ، أو الرغبة في الاختصار والإيجاز ، أو المناسبة والتألف . ولقد أُطلق على هذا الأسلوب في العصر الحديث مصطلح « الجهد الأقل » أما عن أهمية هذه الوسيلة من وسائل التعليل فيتحدث الدكتور عبده الراجحي عنها حيث يقول : « أما كثرة الاستعمال فيكاد يكون المقياس الأغلب الذي يقوم على التعليل في كثير من الظواهر ، وبخاصة في ظواهر التخفيف والحذف والاستغناء والترخيم وغيرها » (١) .

ويؤسس التعليل بهذه الوسيلة على مسلمة مفادها أن الإنسان يسلك في نطقه أيسر السبل وأقلها جهدا ، ولذلك فإن النطوق تتغير تبعا لذلك من الثقل إلى الخفة . ولقد اهتم ابن جنى بهذه الفكرة اهتماما كبيرا حتى أنه صاغ نظرية كاملة فيها ، نسج خيوطها بعدما تكاملت لديه وجهات نظر النحاة السابقين عليه أمثال الخليل وسيبويه .

ومع ذلك فقد جاء بعد ابن جنى من رفض فكرة التعليل بالاستخفاف ، غير أنه أقام رفضه على أساس برجماتي ؛ إذ أن ابن مضاء يرى أن هذه العلة لاتفيدنا شيئا . فلو سأل سائل مثلا لماذا لم ينصب الفاعل ويرفع المفعول ؟ فلو أجابه النحوي بأن الفاعل قليل في كلامهم والمفعول كثير ، ليقُل في الكلام ما يستثقلون ويكثر ما يستخفون ، فإن هذا الجواب - في رأى ابن مضاء - « لايزيدنا ذلك علما بأن الفاعل مرفوع ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذي هو

(١) د . عبده الراجحي : النحو العربي والدرس الحديث ٨٤ .